قصة قصيرة

التقارير

بقلم: عبد العزيز مشري

التقرير الأول

في المستشفى الكبير، والمكوّن في أدواره من تسعة طوابق . . هناك، إلى جانب نافذة الزجاج المحكمة الغلق، كان ينام على سرير بجوار سريري، ويرى حركة الشارع الخافتة من الدور الرابع، وكأنما يرصد شاشة تليفزيون . . تظهر عليها الصورة بلا صوت، وكان يجهد أساليبه في سبيل بناء علاقات بزملائه المرضى في الغرفة، ولا يتوطن سريره، إلا وقت النوم، أو للجلوس متربعاً عليه . . يلتفت عن يمينه فيصطدم بزجاج النافذة الموصد، ويلتفت عن يساره، فيجدني مستلقياً على ظهري . . فارداً جسمي على امتداد السرير، ومستسلماً للأنبوب المغروز في الذراع . . ينفث زفرة قصيرة . . ثم ينهض ليستكمل بناء علاقات جديدة مع مرضى القسم، ويدخل في معركة كلامية - تعودنا سماعها - مع الممرضة الهندية، يعود إلى سريره . . يخضع جسمه بهدوء على طوله، ويتغطى من رأسه إلى أصبع قدمه الكبير، يزفر زفرة واحدة قصيرة . . ثم ينهض . . هكذا هي حالته طوال اليوم، إلى أن يجيء موعد النوم الإجباري .

تدخل الممرضة، في يدها مقياسا النبض والحرارة، وكالمعتاد . . لا تجده . . فتضعهما على طاولة الأكل المتحركة أمام السرير، وتخرج إلى الغرف المجاورة . . تبحث عنه، ثم يعودان، ويكون يتمتم بكلام كثير، لا يعني غير الشتائم لمن ألفه . . أما الممرضة فإنها تدعه ينثر مسامير الكلام، وترد بـ «بابا . . لازم علاج»، ويظل يكرر: لازم علاج، لازم علاج وبعدين؟

لنظرته في موازين جودة الأطباء ميزان غريب، فهو يرى أن الطبيب الذي لا يلقي التحية وقت الدخول أو المرور . . طبيب فاشل، وحاولت أن أفهم منه هذا التفسير . . فقال: معناه إن الطبيب لم يربَّ على احترام الكبير، والمريض، فكيف يعالج؟ . ومع أنني لم أستطع الوصول إلى قناعة محددة معه على هذا التفسير، إلا أنني عزمت الصمت في هذا الأمر، ولقد رأيته ذات مرة يقيم شجاراً قوياً مع مريض ينام على السرير المقابل . . ويتهمه بأنه كالبوم . . ولا ينعق إلا وقت الألم، وعندما يصرخ العجوز من الألم في هدأة الليل . . يكشف الآخر عن وجهه الغطاء، ويصرخ به: يا أخي نريد أن ننام، وهذه الصرخة المكررة، هي التي تجعلنا نحن المرضى الآخرين نصحو من نومنا مرات عديدة في الليل .

بعد أيام أربعة . . تآلفت معه، وذهبت أصغي باحترام وحذر إلى أحاديثه المنقطعة والمكررة . . قال، إنه يود لو أدار المستشفى، لغيّر وبدّل في نظامه .

أسأله: لكنك لا تعرف شيئاً عن الطب، وتعليمك محدود جداً؟ . فيجيب: يا ابني، الإدارة لا تحتاج للطب . . تحتاج للمعرفة والحكمة، والحكمة تكون عند كبير السن .

وكنت أتحاشى الخوض معه في كثير من الأمور . . بدا لي أن مفاهيمه حولها ثابتة لا تتزعزع ، وعلى أي حال . . فقد بذلت ما لا أتوقعه من قدرات في جدليات الأمور ، لإدراك أن هناك فرقاً شاسعاً بين ما يسمى في اللغة الطبية بالأمراض العصبية والأمراض النفسية ـ مثلاً ، أو أن أكل السكر لا يؤدي إلى مرض السكر ، وما شابه هذه المتشابهات ، وكان يغلظ الأيمان أن من يأكل اللحم بالدسم ، والخبز بالسمن . . فلن يقدر المرض على لمسه ، وأذهب أوضح له أن الشحوم الحيوانية والسمن ، تؤديان إلى أمراض القلب والشرايين . . فيقلب كفّه تجاهي في حركة سريعة ترافق طقة ، أو طقتين من شفته . . يعقبها بقوله : «كلام دكاتره» .

وأيقنت بعد تآلفي الشديد معه ، أن مجاراته من أصعب ما يمكن . . بل إن الهروب من غضبه ومشاكساته في الحديث ، هو أمر في مثابة الكسب والفوز .

وصادف أن أدخلنا الحديث ، من خلال قافلة طويلة . . إلى الزواج والنساء ، ودياجير القلب ، فراح يسرد مغامراته في شبابه ، والتي تتوج دائماً بالانتصار نتيجة لحكمته ، وإني لأعلم أن السبب يكمن في سطوته وتعدّيه على الغير ، بما يسمى في لغته بـ «الجسارة» والجرأة والقوة ، وحدثني عن رغبته في الزواج من امرأة هندية . . ثم ما لبث أن أوضح لي أنه تزوجها ، وأن المشكلة تقع في موقع بالغة الصعوبة ، فقد رفضت الوزارة . . الموافقة على استقدامها من الهند .

وبالطبع ، فقد صاحب هذه الحادثة ، عدد من الحكايا التي قابلته ، أو قابلها في أسفاره إلى الهند ، وأنه قد اضطر في سفرة من سفراته إلى إقناع أولاده الثلاثة أنه مريض ولا علاج لمرضه إلا في الهند . . أما من أين له النفقات ، فقال : ابني ورث من أبيه مالاً ، كسبه من قطعان الغنم التي كان قد باعها على مراحل واستطاع تكويم مبلغ نما مع الزمن بسبب الشراء والبيع في الأراضي داخل المدينة التي استقر بها أخيراً ، وهو الآن يملك عقاراً طيباً ، وينتظر موت زوجته العجوز أمّ الأولاد الثلاثة ، والتي يخبىء عنها موضوع زواجه .

* * *

في صباح اليوم . . جاءت الممرضة الهندية ، وكانت سمراء جميلة العينين ، رشيقة اللسان ، حتى ولو كنت لا تفهم حديثها الذي يعتمد في محاولة توضيحه للمرض ، على الانجليزية المطعمة بالعربية .

جاءت إلى سرير العجوز ثم الذي يليه ، ثم جاءتني ، وحملت قياسي النبض والحرارة ، إلى العم «سالم» ، وبرفق أيقظته فصحا كالمذعور ، وصاح بأن المستشفى مكان للراحة والعلاج ، وليس للإزعاج ، ثم وضع الغطاء على رأسه وعاد للنوم ، وتحت إلحاح الممرضة . . نهض واستوى جالساً . . حدق في وجهها طويلاً ، بينما كانت تنتظر مقياس الحرارة في فمه ، ونزع المقياس . . ابتسم وقال : تتزوجيني يا حلوة؟ ويبدو أن الممرضة قد فهمت منه أنه يخاطبها بعبارة لطيفة . . لكنها لم ترد عليه . ثم ما لبث أن نهض على قدميه ، وطوقها بذراعيه ، وراح يوزع على رأسها ورقبتها قبلاً مسموعة . . وسرعان ما رفعت الممرضة صوتها مندهشة مما أصابه ، اعتدل واقفاً ، وهو يقول : إنني سأتزوجك ، وأحب الهند ، وسوف أعطيك المال ، ولا تنظري إلى شيبتي فإني لا أزال قوياً ، وعبارات أخرى من هذا القبيل . أما الممرضة ، فقد أتعبت رقبتها بالالتفات في كل الجهات ، وكادت عيناها يصيبهما الحول من التحديق في جانب مدخل الغرفة . . ثم تركت ما بيدها وانطلقت إلى خارج الغرفة ، وبعد لحظات . . جاءت ومعها الطبيب ، ثم وقف الطبيب لحظة طويلة معها ما بين سريري وسرير العم «سالم» وتحدثا وقتاً قصيراً بالانجليزية ، بينما كان العم «سالم» قد همهم وغمغم وتمتم ودفن جسمه كله تحت الغطاء . خرج الطبيب والممرضة ، وممرضة أخرى دخلت على التو ، وخرجت معهما ، وبعد أن غابا بضع ساعة . . كان الطبيب يقف كالمسمار الثابت وبيده قلم وأوراق مع طبيبين آخرين ، وكانا يتحدثان بانجليزية ممزوجة بعربية شحيحة ، فهمت منه ، أن عم «سالم» يعاني من حالة عصبية مزمنة ، وصلت درجة عالية هذه الأيام بالإضافة إلى مرض السكر وتعب الكليتين ، وأن الطبيب المعالج يرى أنه من اللائق أن يراه الطبيب المشرف على إدارة المستشفى ، لأنهم يرون الإسراع في تحويله إلى مستشفى يعنى بالأمراض العصبية . . فقد سبق له واعتدى على احدى الطبيبات الهنديات ، وهو يختار الهنديات ليس إلا .

وأثناء دهشتي ، وحماسي لموقف العم «سالم» ، حاولت أن أتدخل باقتحامي عبر حديثهم . . فأوضحت لهم أنه ربما يعاني من أزمة نفسية مرتبطة بالعاطفة ، تجاه زوجته الهندية التي لم يستطع استقدامها إلى البلد ، وهو يرى في كل هندية قرباً وشبهاً منها .

غير أن الأطباء الثلاثة الواقفين كالمسامير ، لم يناقشوني

فيما وضحته لهم، بل إن أحدهم رد بقوة، كيف تتأثر الأعضاء ووظائفها ببعض، وكيف تؤثر بدورها على الدماغ، ولم أفهم منه شيئاً، سوى إن العم «سالم»، مصاب بخلل يعتبر من الأمراض العصبية، وخرج الأطباء إلى حيث لا أسلم، ثم جاء ممرض بدين بسرير منخفض يمشي على عجلات، ومعه ملف متورّم، وطلب من العم «سالم» لملمة حوائجه والصعود على السرير. . وانقاد معه كما لو أنه سيذهب إلى غرفة العمليات الجراحية.

بعد يومين من غيابه. . سألت الطبيب الذي كان يتفقد أحوالنا كل يوم عن العم «سالم»، فضحك وأجاب: ألا تسأل إلا عن المجانين؟ لقد حولناه إلى مستشفى يليق بحالات المجرمين!.

التقرير الثاني

كانت الغربة تنفذ من الداخل، وتحتل كل أجزاء الغرفة المضاءة بالصيف اللبندي، وكانت رائحة الغرفة تخالط النفس الرتيب، وتؤكد لمن له سابق علاقة بها. . أنه يقضي كل أيامه ولياليه بدقائق تفاصيلها داخل احدى غرف المستشفى، أما إحساسك بتنفيذ الحكم الصحي في باطن القبو الإجباري، فإنه يطوف بتصوراتك مع وحدة أليفة، وإمكانية التعرف على أهل لسانك، وروابط حميميتك. . فإنها تحتاج إلى مواهب، أقل ما فيها الحركة والتعرف على الغير داخل الدهاليز.

ولعل من عيوب ما أشتكيه، أنني لست ممن يتعرّفون على الخلق بسهولة، وأكاد أزعم أن الغباء بكل قدراته، يسيطر عليّ في مثل هذه الأحوال.

ولولا أن إدارة شؤون المرضى بالمستشفى، تزودني بصحيفة عربية واحدة، كل صباح. . لانقطعت بالتمام عن كل عالم خارج بعض عالم قليل من المستشفى. . ينحصر في الطبيب المشرف، والممرضات.

وها أنذا أترقب، وأتمنى، حدوث معرفة مع أحد من العرب، أي شخص كان، ولو كان يرفع ضغطي بحماقته. . .

وذات ظهيرة. . قرع الباب، ودلف رجل نصف شعر رأسه محلوق عن آخره، ونصفه الآخر نابت، قوي، أسود، باهت، كشعر الماعز، وكذلك شاربه المهذب، ولحيته التي تشبه مقبض الخنجر، وكان له صوت يشبه الهمس، حيّاني، فحيّيته بردّ هامس أيضاً. . فحدق في وجهي طويلاً، ورفع يده ثم أرخاها محيياً مرة أخرى، قلت: لعله يعاني من قصر في السمع، وكان توقّعي في محله. . حيّيته أخرى بصوت مسموع، إقتعد الكرسي المرافق لسريري. . سألني، وأجبته، وسألته، فأجابني باختصار، وكان الفضول يدفعني نحو التعرف على سبب هذه الحلاقة العجيبة. . لكنه بعد توقف. . قال لي، إنه جاء لإجراء عملية جراحية في داخل الأذن، ولم أسأل.

نهض وهمس من بعيد أنه سيعود.

بعد قليل. . عاد دون أن يطرق الباب، وفي يده جهاز تسجيل، وعدد من الأشرطة التي يظهر عليها أنها قد تعبت من أثر الاستعمال. ضغط على أصبع التشغيل، وتلاطم في فضاء الغرفة صوت الربابة العربية، يرافقهاغناء غير مفهوم له إيقاع بطيء، كإيقاع سير قافلة من الإبل.

بان على وجهه أن قدم لي مفاجأة جميلة، وقد حاولت أن أظهر له برغم من ارتفاع صوت الغناء. . ارتياحي، لكنني دفعت بإصبعي لميزان الصوت، اخفضه، وأحسست أنني شتمته حيث تذكرت ضعف سمعه، ورحت بحركة مرافقة أوضح له، إن بالمستشفى مرضى يزعجهم هذا الهدير، فهز رأسه. . ثم شرع يحدثني عن عيون الصبايا الخضراء في هذا البلد، وعن خشونة تعاملهم معنا. . فقلت له في شيء من المجاراة، ولماذا لا تعاملهم كما يعاملونك، أو تتجاهل خشونتهم؟ وكان قولي يشبه السؤال الذي ينتظر جواباً كما حسب، فأجابني أنه لم يتعود أن يمر بأحد الخلق ثلاث مرات في اليوم. . دون أن يلقي عليه السلام. . وأضاف، ثم لا يردّ!.

* *

دخلت الممرضة، وكانت انجليزية السمات واللغة، وبيدها ورقة مطبوعة بلغتها، ألقت بعبارة فهمت منها أنها لم تجده في غرفته، ثم ناولته الورقة وانصرفت، فرد الورقة أمام وجهه كأنما يطالع مرآة، ثم عاد فقلبها، مدّ بها إليّ. . بخبرتي القليلة، علمت أنها تعبير عن صنوف الطعام الذي قد سمح له بتناوله في الوجبات الثلاث. . وأبحرت أترجم له بصعوبة أسماء الطعام، فيوافق على هذا، ويسأل عن ذاك، وأضيف من عندي أشياء أخرى لا أدري ماذا تعني.

كانت زيارته لي في ظهر اليوم التالي محفوفة بالشكوى والتذمر، فقد أحضروا له مع الأرز والسلطة لحم خنزير، قال

لي إنه أكل لحماً طيباً ولذيذاً لم يتعوّده من قبل، وعندما سأل المترجمة عنه.. أجابته أنه لحم خنزير.. فخاف وتجشأ، وقد ترددت في إبانة التباس هذا الأمر، وأن اختياري غير المقصود.. كان وراء الحادثة.. لكنني بعد التردد القصير.. شرحت له بعفوية شديدة، فما اقتنع، بل راح يؤكد لي إن في الأمر خطة مدبرة منهم، ودخل غرفة المشرفات ليقيم شجاراً عنيفاً، لم يفهم منه سوى أنه يشكو من شيء عظيم.. فكان أن استدعوا المترجمة العربية، وهنا أخذت الزوبعة تهدأ رويداً رويداً إلى أن سكنت.

كنت قد تعرفت على شابّة عربية من ليبيا، معرفة كان لصاحبي فيها دور، وكانت تعاني من كسر سبب لها العرج في قدمها اليسرى.. مما جعل من العكاز المعدني رفيقاً كالظل، وكانت تحب المطالعة، وتهوى كتابة الخواطر الأدبية، والرومانسية منها بالتحديد، وحدثتني بعد تآلف، أنها عشقت شاباً من بلدها، وصادف أن أخذها في خلسة عن أهلها، لرحلة بسيارته في ضواحي المدينة.. فوقع لها حادث نتيجته جاءت على حياته، وعلى قدمها اليسرى.

ولما كنت أهذب لها بعض العبارات التي تكتبها، وأحاول أن أبعدها عن الارتباط بمصير هذه الذكرى، وذاك الحب الذي ولّى، فقد برمجت زمنها اليومي على زيارتي كل ضحى، وشرب الشاي الذي يحضره في أحايين كثيرة صاحبي ذو السمع الثقيل.

وذات ضحى، وبينما كنا نحن الثلاثة نتقاسم حديثاً في الزواج والأولاد ـ وكان الحديث قد فرض من صاحبي، لأنه لم يكن ليتفاعل مع مناقشاتنا في شؤون الأدب ـ نظر إليّ بعينين مفتوحتين، وقال، إن بنات اليوم، قد تفرعَنَّ على الرجال، فما رأيك في واحدة يعرض عليها الزواج فترفض؟

وهنا أحسست بأن الفتاة، تقيم عكازها لتنهض، ولم التفت إليها.. رأيتها تتمتم بكلام لم أتبينه.. فأدركت أن صاحبي.. قد قذفها بهذا العرض المباغت، وربما قبل أن أعرفها بمدة غير قصيرة.

وحين خلت بنا الغرفة.. صارحني بأنه يرغب في الزواج منها، ولو لليلة واحدة، وأنه لو لم يكن زوجاً لأربع من النساء لرفدها بهن.

وهنا استفزّني حديثه فصرخت به صرخة حاولت أن أردها عن الباب إنك مجنون.

ولم يعرني التفاته.. مدّ يده ألى جهاز التسجيل ونتف حبله من ثقب الكهرباء، ومضى من غير همسة.

عندما جاءت الفتاة في الضحى التالي، أكدت لي أنها تعاني من سذاجة هذه المطاردة التي لا تليق بفتاة وعجوز، ولم تكن لتعلم من حديثها أنه متزوج بأربع.

وفي مساء ذلك اليوم، وقفت على قدميها، وكانت لعرجتها الوديعة في خاطري، أطيب من معنى.. ودّعتني وداعاً آملَت ألا يكون آخر اللقاء، لكنها غادرت أبداً. أما صاحبي، فقد فاجأني في الصباح بنبأ لم يزدني إلا وحشة، وحينما اعتدلت على حيطي مسلماً.. منحني قبلة أبوية في جانبي الوجه، ووعدني بزيارة هاتفية ولو بعد حين.

* * *

أما، وإني بقيت خالياً.. أتلمس ذاكرتي على أطلال أول أنثى أحببتها في صهريج الصداقة العابرة.. فإن الخلوة ستدفع بي إلى قراءة أثاث الغرفة.. مئات المرات في اليوم، وفي الليل يأتي حيناً، وأحياناً لا يأتي النوم.

قالت الممرضة، إن في جناح الأطفال.. طفلاً عربياً، عرفت إن اسمه «عبدالكريم»، ودعوته «كريم».. وكان في التاسعة أو العاشرة على ما قدرت، ولم يكن ليحب التعرف على أحد.. غير أن مقابلتي لوالده الذي يزوره كل يوم.. جعلته يؤانسني، ويتقبل مجالستي، ولاحظت في صمته الطويل.. حالات من البكاء الذي لا تكشفه سوى الدموع، ولم أتمكن من سؤاله عن حالته المرضية.. وأفادني والده، دون سؤاه مني، أن ابنه يعاني من مرض في الدم.

وما لبثت الأيام أن جعلت منا صديقين ودودين.. ثم انقطعت مقابلاتنا فجأة، وعندما سألت المترجمة العربية أثناء مرافقتها للطبيب.. أجابت:

«تعيش أنت.. البقية في حياتك».

وقتها أحاطتني بعلمين:

أنه لن يغدو أكبر من عمره الذي قضاه بدقيقة واحدة..

أنها عربية من مصر، ولم أقرأ هذا طيلة ترجمتها في الأيام السابقة.

التقرير الثالث

كنت أتوق لإقامة علاقة بها، وكنت حين أمرّ من أمام مصراع باب الغرفة المفتوح أبداً . . أحدث نفسي، بأن هناك قساوة في قانون الحياة الطبيعي، فكيف يهتك أزاهير الجمال؟

وعندما أخفي فضولي، يرفض القلق أن يصالح النوم، فأشرع في الجيئة والذهاب ماراً بالمصراع المفتوح، كنت أطلق عنان أمنياتي في التعرف عليها . . لكنهم يمنعون حتى المرضى من إقامة التعارف . .

يئست، وأكلت نفسي من الغضب، حتى نزفت كل جوارحي . . ولما مررت هذه المرة . . رأيت السرير الأبيض يخلو من «الجمال النائم»، قيل لي، إن نسبة نجاح عمليتها الجراحية لا تزيد عن الثلاثة في المائة، فبكى داخلي مرتين وكتمت .

التقرير الرابع

كل مرضى القرى المحيطة . . يغدون إليه قصْد العلاج، ويغدون إليه من الجبال البعيدة . . بعضهم يركب الحمير، وبعضهم يركب السيارة، والبعض يركب القدم . ولأنه الطبيب الوحيد الذي يجلس في عيادة خاصة، والأول الذي انتزع الإقامة في الضاحية منذ سنين . . فقد ألبسوه الشهرة والدعاية وطيب الرجاء .

كانت الغرفة بسقفها الخشبيّ، وأرائكها التي لا تهدأ من الزأزأة بمجرّد اللمس . . قد استوعبت بكل فراغاتها المعدّة للجلوس . . عدداً من طالبي الشفاء: شيوخ، أطفال، عجائز ملفعات بالأسود، وقليل من الشباب الذين جاءوا لمرافقة ذويهم في أغلب الحال . . وكان الانتظار يأخذ مأخذه في النفوس والأجسام العليلة .

بعد طول ارتقاب . . هبط الطبيب ببيجامة حريرية من الطابق العلوي، وأحدث نعلاه البلاستيكيتان ارتطاماً في الهدوء الثقيل . . دخل العيادة، ثم ما لبث أن أحدث ارتطامات بالنعلين على السلم الخشبي، وكان هذه المرة يقفل صاعداً .

عاد بعد زمن إلى طاولته في العيادة، وكان يلمع في بذلة بلون لؤلؤي ناصع . . استدعى الممرض الذي يعمل طبيباً في غيابه، ويلبي الطلبات إذا ما استسعفوه في القرى، ولما كان من أهل البلد . . فقد خبر مع التجربة أغلب الأمراض، والحميات التي تصيب عافيتهم .

أدخل الممرض أول المراجعين، وكانت عجوزاً تقمقم ضغونها داخل خيمة عريضة من القماش الأسود، وتفوح منه رائحة قوية النفاذ لنبات البعيثران، وصحبها ابنها الشاب ذو الخمسة عشر عاماً . .

ويبدو أن الطبيب اكتسب فراسة في المعالجة النفسية أيضاً، فهو يتقن الوجوه، والأعمار، وثقافات المرافقين . . فيصنف على مقياسها العلاج، يرى ـ مثلاً ـ أن الشيوخ والعجائز، لا ترضيهم أنواع الأدوية التي تأتي على هيئة الشراب، أو الحبوب والكبسولات . . فيومىء إلى الممرض الذي يفهم إيماءته، ويحقن هذا النوع من المرضى بما يسمونه «الشرنقة»، وهي اعتقادهم الوحيد بأن الشفاء لا يتأتى إلا من غرزتها، وقد تطورت الحال، فأصبحوا يطالبون بالأشعة التصويرية إلى جانب «الشرنقة» .

وبعد أن أفرغت العجوز نثارات الشكوى من الآلام المقلقة . . يفهم الطبيب ـ غير المحلي ـ بعضها، ولا يفهم البعض منها . . حدّد تصنيفها، وعرف كيف يعالجه، ولما غمغمت العجوز بدعاء لا يحصى، في أن يحفظ الله الطبيب، ويرده إلى بلاده سالماً غانماً . . حلّت صرّة صغيرة في طرف خمارها، وأخرجت منها أوراقاً معجونة من النقود، قضت في تجميعها شهوراً طويلة، باعت في أيامها بيض الدجاج، وبرسيم المزرعة، ولب اللوز، وعيديات الأقارب .

أما الطبيب، فقد أرسل يده للدرج العريض الذي بدأ يقحم في فراغه أول استفتاحات اليوم .

الدمام